

مدخل إلى علم التاريخ
استاذ المقرر
د/ عبدالحليم رمضان



جامعة الملك فيصل
عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

كلية الآداب

المحاضرة الرابعة عشر



نشأة علم التاريخ عند المسلمين ، وأثر ظروف النشأة على المنهج والصيغة :

١ - أشار القرآن الكريم في كثير من آياته لأحوال الأمم السابقة (آل فرعون ، عاد ، ثمود ، . . . الخ) كما أشار إلى نبوات سابقة (موسى ، عيسى . . . الخ) مما حدا للمسلمين إلى الرجوع إلى من سبقوهم بالكتاب من يهود ومسيحيين ليأخذوا عنهم ، وكان لهذا بعض الفائدة كما كان فرصة لأعداء الاسلام للدس على المسلمين .

سؤال وبمحث مقترح : كتب بعض الباحثين عن الاسرائيليات قاصدين بها ما دس على الكتابات الاسلامية من فكر يهودى .

ابحث في المكتبة عن مراجع لهذا الموضوع واكتب فيه مبحثا لا يتعدى الصفحات
الثلاث .

٢ - كان المسلمون يتبعون كل ما يصدر عن الرسول من قول أو فعل وكان هذا يسيرا مادام المصطفى عليه السلام يعيش بين ظهرانهم ، ولما مات عليه السلام خشي بعض المسلمين من تدوين حديث الرسول مخافة اختلاط القرآن بالحديث وبعد قيام عثمان رضي الله عنه بجمع القرآن في امام ما عادت هذه الخشية قائمة ، فشرع المسلمون في تدوين حديث الرسول مُتخذين في ذلك منهجا دقيقا غاية الدقة وكان هذا المنهج هو أساس منهج البحث التاريخي عند المسلمين . لقد كان جامع الحديث يتنقل من بلد إلى بلد متبعا رواة الحديث ، وكان لا يأخذ من أى شخص ، وإنما يسأل عنه (يجرحه



ويعدله) أى يعلم هل هو شخص موثوق به (عدل) أم هو غير ذلك (مُجرح) ونشأ
عن ذلك علم الجرح والتعديل .

لاحظ أن تقويم راوى الحديث (أى تجريحه أو تعديله) هو نفس ما نقوم به الآن
بالنسبة لنقد المصدر التاريخى أو وزنه لمعرفة قيمته . ولم يكن جامعا الحديث يذكر
حديثا للرسول دون نسبه لراويه (لا يختلف هذا عن الحواشى أى نسبة المادة العلمية فى
نص البحث لمرجع أو وثيقة أو شخص) وقد عرفت طريقة رجال الحديث هذه باسم
(العنّنة) لأنهم يقولون عن فلان عن فلان أن رسول الله قال :

٣ - ولما فتح المسلمون بلدانا كان لأهلها حضارة وتاريخ مكتوب جعل أهل هذه البلاد المفتوحة يزيعون تاريخهم بين العرب إما لعصية وإما تقريرا لواقع مما حدا للمسلمين إلى مزيد من العناية بالتاريخ ، واستخدموا في تحقيق الخبر نفس أسلوب المحدثين ومن هنا لا بد أن نعيد التأكيد أن رجال الحديث هم واضعوا أسس المنهج التاريخي الدقيق فيما يتعلق بضبط الخبر والتحقيق منه وإسناده لراويه .

لذلك ليس بدعا أن تكون أول الكتابات التاريخية الإسلامية قام عليها مُحدثون مثل عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ (٧١٢ م) الذي ألف كتابا في المغازي لم يصل إلينا ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى ١٢٣ هـ (٧٤١ م) ولم يصل كتابه أيضا إلينا . أما الكتاب الذي بين أيدينا والذي يمثل هذه المرحلة الباكرة للكتابات التاريخية عند المسلمين فهو سيرة ابن هشام .

٤ - وفي القرن الثاني الهجري ظهر بعض المؤرخين كتبوا في مجالات بعيدة عن السيرة النبوية ومن هؤلاء محمد بن سائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ / الذي راح يجمع الروايات القبلية عن الأنساب ، وألف ابنه هشام بن محمد بن سائب الكلبي كتابا مشهورا هو جمهرة الأنساب . وفي القرن الثالث تبلور علم التاريخ تماما ويهمننا أن نتوقف عند كتابين لعلمين من أعلام القرن الثالث الهجري وهما :

(أ) فتوح البلدان للبلاذري (توفي ٢٧٩ هـ)

(ب) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (توفي ٣١٠ هـ)



ويصف الدارسون ابن جرير الطبري بأنه « شيخ مدرسة التاريخ بالمنقول التي يمتد تراثها خلال القرون الثلاثة السابقة لأنه القمة العليا لهذا المنهج في التأليف عند المسلمين بصفة عامة »^(١) .

ويذكر الدكتور علي ابراهيم حسن^(٢) أن كتاب تاريخ الأمم والملوك « كما تركه مؤلفه غير موجود إذ أنه للأسف سرق ، ونقل في عدة كتب أخرى . ولأهميته ساح بعض العلماء الهولنديين في الممالك الاسلامية واستخرجوا من المؤلفات الملخصة المسروقة التي نقلت عنه نسخة أقرب ما تكون إلى الحقيقة » .

والتاريخ على يد الطبرى ليس إلا تخر للدقة في نقل الخبر عن طريق تمحيص الأسانيد وفحصها وضبط الروايات ولم يتحول التاريخ على يديه إلى مجال للتحليل والنظر العقلي والاستنتاج .

ومع أن الطبرى في تاريخه قد انفلت من مجال السيرة ورواية الحديث إلا أنه استخدم نفس منهج علماء الحديث في (العنونة) أى نقل الخبر عن فلان عن فلان عن فلان حتى يصل إلى مصدر الخبر الأصلي إلا أنه اختلف عنهم في أمر هام فلم يقيم الرجل بتجريح من يروى عنهم أو تعديلهم فقد كان يعتقد أن رواية الوقائع والأحداث التاريخية ليست على نفس قدر وأهمية رواية وأحاديث المصطفى عليه السلام .

ومن خلال كتاب الطبرى ، ومن خلال آراء الدارسين أيضا يمكننا أن نشير إلى بعض قضايا منهج البحث التاريخي ، وعلى الطالب أن يلاحظ أن ما نشره من قضايا منهجية لها صفة الدوام بمعنى أن المؤرخين حتى اليوم يأخذون بها ويترسمون خطاها :

(أ) كان الطبري يعتد بروايته إذا كان معاصراً للأحداث وشاهداً عليها . وقد ذكر أحد المستشرقين أن « الطبري قام في التاريخ بعمل مشابه لما قام به البخاري ومسلم في الحديث . . . وأتبع ذلك » عملاً شاقاً وخطراً إلى حد ما وهو الاستمرار في التدوين إلى عصره .

(ب) قام الطبري في بعض الحالات بالترجيح بين الروايات . ونحن في التاريخ نتعرض دائماً لروايات متباينة ويتحتم على الدارس أن يخضع هذه الروايات لميزان العقل والمنطق والتحليل ليخلص أي الروايتين أدق . وإخضاع الروايات المتباينة للتحليل للخلوص بصحة رواية يعينها هو ما لم يفعله الطبري وإنما الطبري كان يرجح إحدى الروايتين على الأخرى بناء على قوة السند أو وثوقه في الراوي . ورغم أن بعض الباحثين يوجهون نقداً عنيفاً لهذه الطريقة في الترجيح بين الروايات إلا أن المؤرخين المحدثين يستخدمونها في كثير من الأحيان فإذا تعارض نص تاريخي مع نص تاريخي آخر فإننا نرجح النص الوارد في مرجع ألفه مؤلف معاصر للأحداث . ونحن نرجح ما أورده الوثائق التاريخية وما أظهرته الآثار على ما ذكرته الكتب الروائية Narrative Sources وهذا في جوهره لا يختلف عن طريقة القدماء . على أنه مما يُنصح به أن يأخذ الباحث بالطريقتين معاً .

٥ - ثم انتقل التاريخ نقلة أخرى تميزت بمحاولة تفسير الظواهر التاريخية بالعوامل الجغرافية أو الدينية أو الحضارية عامة أما من ناحية التنقيب عن الحقيقة التاريخية فقد ساحوا وارتحلوا بحثا عن الحقيقة « فليس من رأى كمن سمع » وعمدوا إلى مشاهدة الآثار التي تركتها الأمم الخالية وتسلحوا بمعرفة لغات الأقوام الذين يؤرخون لهم . ولم يكن التاريخ عند هؤلاء المؤرخين في هذه المرحلة تاريخا سياسيا يعنى بالدول والملوك فحسب وإنما أرخو للظواهر الاجتماعية والحياة الثقافية . . وتعمقوا في معرفة أسباب الحوادث ونتائجها .

ومن المؤرخين الذين يمثلون هذه المرحلة خير تمثيل المسعودى والمقدسى وابن مسكويه والبيروني .

(أ) المسعودى (ت ٣٤٦ هـ - ٩٥٦ م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر .
القاهرة ، ١٨٨٢ م (١٣٠٣ هـ) كتاب التبيه والاشراف . القاهرة ،
(١٣٥٧ هـ) .



(ب) المقدسي ، محمد (ت ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) أحسن التقسيم في معرفة الأقاليم . ليدن ، ١٩٠٦ م (١٣٢٤ هـ) .

(ج) ابن مسكويه ، أحمد بن محمد (ت . ٤٢١ هـ - ١٠٣٠ م) تجارب الأمم وتعاقب الأمم . بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٦٥ م (١٣٨٥ هـ) .

البيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (ت ٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م) الآثار الباقية عن القرون الخالية .

لينرج ، ١٨٧٨ . (١٢٩٦ هـ) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة .



ويلاحظ أن هؤلاء المؤرخين كان لهم باع في علوم أخرى ، بل أنهم محور تنازع بين الدارسين في مجالات مختلفة . فالمسعودي جغرافي يشار له بالبنان إلى جانب كونه مؤرخا وكذلك المقدسي ، أما ابن مسكويه فقد كان رجل دولة وسياسة أما البيروني فأشهر من أن يغفل فجهوده في علوم الطب والصيدلة والحساب وكان دارسا للفلك عالما باللغة العربية والفارسية والسنسكريتية واليونانية والسريانية حتى أن أحد المستشرقين يصف البيروني بأنه « أكبر عقلية في التاريخ » .

وقد ذكر روم لانلو أن المسعودى من « المؤرخين ذوى الطابع الكلى الشمولى وهو بغدادى فاز بلقب هيرودتس العرب ولقد اصطنع طريقة الموضوعات Topical Method فى تدوين التاريخ مستقطبا الأحداث حول السلالات الحاكمة والملوك . وكان أسلوبه نابضا بالحياة ظريفا بسبب لجوئه إلى الحكاية التاريخية . . . »^(١) فالمسعودى رتب كتابه ترتيبا موضوعيا وجعل محوره الملوك والدول والشعوب ولم يتبع النظام الحولى أى التاريخ لكل سنة على حدة ثم السنة التى تليها فالتى تليها وهكذا ، وهو ما فعله الطبرى . ولا يقل المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم عن المسعودى رغبة فى المعاينة للبلاد والمعايشة للأحداث وقد تكبد فى سبيل ذلك كثيرا من النصب فقد « أكل مع الصوفية الهرائس ومع الخانقين الثرائد ومع النواتى العصائد وطرده فى الليل من المساجد وتاه فى الصحارى وساح فى البرارى وصدق فى الورع زمانا وأكل الحرام عيانا . . . » إلى آخر حديثه الطريف .

ومرة أخرى نؤكد أننا لسنا بصدد التأريخ للكتابة التاريخية فحسب ، وإنما نحن نستفيد من هؤلاء المؤرخين القدامى في منهج الكتابة التاريخية رغم قدم عصورهم إذ يتعين على دارس التاريخ اليوم إن أراد أن يؤرخ لبلد أو قطر أن يضمن بحثه مقدمة أو تمهيدا عن الظروف الجغرافية لهذا البلد واذا أرخ لموقعة حربية ذكر نتفا عن مكان هذه الموقعة وما يحيط بها من جبال أو صحارى أو أنهر وأثر ذلك كله في سير القتال .

أما ابن مسكويه فقد كان كاتب سر الوزير المهلبى وكان بعد ذلك صاحب حظوة لدى ابن العميد فعرف الرجل أسراراً ومن هنا كان نظرة للتاريخ نظراً عميقاً لأنه كان غالباً يعرف السبب الحقيقى للحدث لا السبب الذى يُلقى في روع العامة .

٦ - استوى علم التاريخ على سوقه ناضجا يافعا ، بدأ مرتبطا بالدين عامة وعلم الحديث خاصة واستمر متخذاً منهج علماء الحديث في العنونة وتوثيق الخبر مع شيء من التحرر متخذاً ماضي البشرية - ليس حديث الرسول فقط - موضوعاً له متبعاً أحوال البشرية عاماً فعام كلما كان ذلك ممكناً وكان هذا على يد الطبري ثم نضج أكثر فأصبح علم دراية لا رواية على يد المسعودي وابن مسكويه واتخذ هؤلاء الموضوع لا السنة أساساً للتاريخ . . هذا هو التطور الحاصل حتى القرن الخامس الهجري . لكن هذه المراحل لا تأت لتُجَبُّ مرحلة المرحلة السابقة عليها أو تنهيا ، فليس معنى أن المقدسي أو المسعودي لم يستخدموا نظام الحوليات أى التأريخ لسنة سنة أن هذه الطريقة في الكتابة التاريخية قد انتهت إلى غير رجعة . . فهذا في الواقع ما لم يحدث وما كذبت الدراسات التى تابعت الكتابة التاريخية بعد ذلك ، بل لا زال بعض المؤرخين المحدثين يتخذون موضوعاً لكتاباتهم التاريخية قرناً من الزمان أو عقداً من قرن . .

- عرفت أهمية كتب التراجم ، وعرفت أن هذه الكتب أو المراجع نشأت أساساً في احضان علم الرجال ذلك العلم الذي نشأ كعلم مساعد للحديث رغبة من رجال الحديث في الثبت من طباع وأخلاق من يروون عنهم .
- وبالإضافة لذلك فأنت كطالب تدرس التاريخ لابد لك من الرجوع لهذه المراجع - كتب التراجم في بحوثك التاريخية :
- ١ - بعض البحوث التاريخية تتخذ موضوعاً لها شخصية دينية أو علمية أو أدبية أو سياسية ومن ذلك :
- مروان بن محمد ونهاية الدولة الأموية .
 - الأمين وعصره .
 - عثمان دان فوديو ودوره في غرب أفريقية في القرن التاسع عشر .
 - أحمد عرابي
 - محمد بن عبد الوهاب . . . الخ .

والآن تصفح هذه القائمة من كتب التراجم ، واختر اثنين منها لتدرسهما بعناية في المكتبة وتكتب عنهما تقريرا يشمل :

- (أ) فكرة عن المؤلف وعصره ، مركزا على ميول المؤلف واتجاهاته ومذهبه .
- (ب) الفترة الزمنية التي تناولها المؤلف ، وهل اكتفى بالتأريخ لرجال قرن بعينه أو دولة بعينها أم تناول المشاهير السابقين عليه والمعاصرين له .
- (ج) هل تناول المؤلف المشاهير عامة أم تناول طائفة منهم : كالشعراء أو الأدباء والأطباء وما إلى ذلك .
- (د) هل تناول المشاهير رجالا ونساء أم قصر كتابه على الرجال دون النساء أو النساء دون الرجال .
- (هـ) كيف نظم كتابه ورتبه ؟ هل رتبته هجائيا بالأسماء الأول للشخصيات التي يترجم لها أم بالاسم الأخير أو اسم الشهرة أم رتبته تاريخيا وفقا لسنوات الزمن أم رتبته طبقة طبقة . . إلى آخر أنواع الترتيب .
- (و) وعند تناوله للشخصية التي يؤرخ لها هل يظن أم يوجز وما هي العناصر التي يذكرها عادة ؟ اضرب أمثلة على ما تذكر من واقع الكتاب نفسه . .

١ - ابن حيان القرطبي ، أبو مروان بن خلف (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ) (٩٨٧ - ١٠٧٦ م) المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، حققه و قدم له وعلق عليه محمد علي مكى . القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامى ، ١٩٧١ .

٢ - ياقوت الحموى (٥٧٥ - ٦٢٦ هـ) (١١٧٩ - ١٢٢٨ م) معجم الأدياء . القاهرة ، وزارة المعارف العمومية ، ١٩٣٦ - ٢٠ ج .

٣ - أبو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل (٥٩٩ - ٦٦٥ هـ) (١١٩٧ -

- ١١ - المُحَيِّى ، محمد أمين بن فضل الله (١٠٦١ - ١١١١ هـ) (١٦٥١ - ١٦٩٩ م) .
 خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . بيروت ، مكتبة حياط ، ١٩٦٦ ،
 ٤ مج .
- ١٢ - المرادى ، محمد خليل بن على (١١٧٣ - ١٢٠٦ هـ)
 (١٧٦٠ - ١٧٩١ م)
 سلك الدرر فى أعيان القرن التالى عشر . بغداد ، مكتبة المتى ، ١٩٦٨ - ٤ ج
 فى ٢ مج .
- ١٣ - العاملى ، زينب بنت على بن حسين (١٢٧٦ - ١٣٣٢ هـ) (١٨٦٠ -
 ١٩١٤ م)
 كتاب الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور . القاهرة المطبعة الأميرية بيولاى ،
 ١٨٩٤ .
- ١٤ - الزركلى ، خير الدين : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من
 العرب والمستعربى والمستشرقى . القاهرة ، ١٩٦٣ - ١٠ مج .
- ١٥ - عمر رضا كحالة . أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام . دمشق المكتبة
 الهاشمية ، ١٩٤٠ - ٣ مج .



بِسْمِ اللَّهِ
بِحَمْدِ اللَّهِ

